جميلة

بقلم : فيصل جبرئ السامر

ماجستير في التأريخ في ثانوية البصرة

في قرية من قرى الريف التي لا تبعد كثيراً عن المدينة عاش أحمد افندي على تراث من الذكريات ، مما يدره عليه ارض خلفها له ابوه ، كان هذا الرجل موظفاً في وقت من الاوقات يحيا حياته الهادئة السعيدة في ظل زوج جميلة تصغره كثيراً ، لكن القدر لم يمهلها كثيراً ، فتوفيت ولما تشب ابنتها « جميلة » عن الطوق ، ولما أحيل أحمد أفندي على التقاعد ، ووجد ان حياة المدينة تكلفه اكثر مما يطيق اصطحب ابنته الصغيرة وخادمه العجوز الى هذا الريف الهادي يمضي سنيه الاخيرة .

ايتها المدينة ! استقبلي هذه الضحية الجديدة . . اطو عليها جناحيك القاسيين ، وخلبيك الجارحين وغنيميها في عالمك المجهول الغامض مع مئات من الضحايا الاخر . . ضحايا المجتمع .

لكن احمد افندي — وهو من صميم الريف لم يتنازل يوماً عن مظهره الحضري ، وحياته المتمدنة ، ومثله العليا ! كان يحتقر الفلاحين من كل قلبه ويسميهم بصراحة مؤلمة « الاجلاف ! » لذلك يندر ان يختلط بهم ، بل يمضي اوقاته وحيداً يطالع الجرائد التي ترده من المدينة فيتسقط اخبار مجتمعه الاول بحنين ولهفة ، وهو يصر دائماً على ارتداء البدلة الافرنجية ولو كان في بقعة قريبة من داره ولا تفارق النظارة السميكة البيضاء عينيه ولا مسبحة الكهرمان كأنما ذلك في مظاهر الابهة الغابرة ، وهو يحلم دوماً بان يزوج ابنته من مدني حسن الحال فيتيح لذريتها ان تحيا حياة الحضري التي يهواها .

نشأت جميلة في هذا البيت بجسمها بعيده عنه بروحها وعواطفها ، فهي الصبية الفائرة الدم ، الحارة العواطف ، لا تستطيع ان تحيا هذه الحياة الخاملة الباردة بين والدها المستزمت ومربيتها العجوز ، ، فما تكاد الشمس تبزغ من خدرها حتى تخلف البيت الكئيب وراءها مندفعة في الحقول المنبسطة تقطف الازهار النديه ، وتأكل الفواكه الفجة ، وتختلط بالفلاحين والفلاحات تشاطرهم مسراتهم واحزانهم وطعامهم وشرابهم ، وما اكثر ما أنبها ابوها على ذلك اشد التأنيب ، وما اكثر ما اوصى فاطمة العجوز بان تفرض عليها رقابة صارمة كيلا يفسدها « الاجلاف! » على ان جميلة كانت تخترق هذا الحصار المضرب عليها مستغلة طيبة العجوز وحبها لها فتعود من جديد لتمارس حياتها الحرة الطليقة خارج جدارن البيت .

كانت جميلة منذ صباها فتاة تزخر بالحيويه وتفيض بالنشاط ، فهي ابداً براقة العينين ، محمرة الوجنتين ممتلئة الشفتين ، ناضجة الجسم ، لا تهدء ولا تستقر كأنها خلقت للحركة والحركة وحدها ، ، كفراشة تنتقل من زهرة الى زهره ومن فنن الى فنن . وكم احبها اهل القرية ! ان هذه الحضرية الريفية ، ، الزهرة المتوحشة ذات العطر العبق ، كانت سلوى للقرية جميعاً ، ، تدخل البيوت من ابوابها ومن غير ابوابها في الليل وفي النهار ، ، تسطو على الفواكه وتستولي على البيض من تحت امهاته وتعمل كل ما يحلو لها دون ان يتذمر منها احد بل كان اهل القرية يشجعونها على ان تعتبر بيوتهم ملكاً لها لا ينازعها فيها احد .

هكذا شبت بنت المدينة في القرية ، ، جميلة بارعة الجمال حارة دافقة الحرارة ساذجة في ملبسها وروحها وحركاتها

يشبع وهي أضعف ما تكون اذا تظاهرت امامها بالقوة وأقوى ما تكون حتى اذا كنت قويا وتظاهرت امامها بالضعف . . ودمت لاخيك المخلص .

القاهرة — اسماعيل الجبروك

وكانت كلما ترعرعت ، ترعرع حسنها ، وبهرت وضاءتها الابصار ، وخلبت فتنتها الالباب ، حتى كان يوم استدعاها ابوها اليه فنفض على سمعها هذه الكلمات التي نقلتها فوراً الى الشباب « بنيتي ! انك لم تعودي طفلة ، ، انظري الى نفسك في المرآة ، ، انك الان شابة تصلحين للزواج ، فكفي عن الاختلاط بهؤلاء الاجلاف ، ، فان مكانك المدينة ، غداً سأصحبك الى هناك لتعيشي بسعادة » .

وانفلتت جميلة من بين يديه تنتفض كأنها ورقة في مهب الريح وارتمت على فراشها تنشج وصدرها يعلو ويهبط ، ، واحست لاول مره ان حرارة طاغية تلهب جسمها كالسياط وقضت تلك الليلة وهي فريسة للحمى ، ومن ذلك اليوم لم يعد اهل القرية يرون جميلة الطفلة .

وفي ليلة من ليالي الصيف الطلقة والبدر في تمه اخذت القرية تستعد لفرح لم تشهد له مثيلاً من قبل ، ، فقد كانت ليلة زفاف ابن شيخ القرية . واخذ الجميع يرقصون فرحاً وارتفعت الزغاريد من كل فم ، ، وجميلة ترقد على فراشها فوق سطح الدار ، وكل حواسها ملقية الى ما يدور حولها أهكذا ستحرم حضور هذه المناسبة السعيدة ! ولم تشعر الا وفاطمه الحنون تقترب من فراشها في حذر ، وتغريها باصطحابها لرؤية الفرح ، وهناك في ساحة القرية المزخرفة بالاضواء والاعلام ، جلست جميلة مع نساء القرية تستمع الى ذلك المغني الشاب ، ، الطويل القامة ، الاسمر الوجه وهو يصعد من قلبه آهات حارة تتضوع في الفضاء العريض حلوة رخيمة تستثير الاحاسيس . وعاشت جميلة في حلم وهي ترقب المغني الشاب . . وفجأة التقت العينان وارتعشت جميلة ولم تشعر الا وفاطمة تقودها الى البيت وهي تشوى

ومرت الايام والليالي وجميلة كأنها في سجن ، ، لقد ولي فرحها واخذت تلازمها الكآبة فهي تشعر بشعور مبهم غامض لا تعرف له كنهاً ، ، وتحاول ان ترد هذا الشعور الى اصله فلا توفق ، شيء ما في داخلها يضايقها كأنه ثقل يؤقر صدرها فتود لو تزيحه وهي تفضي الى رفيقتها العجوز بما تحس ، فتبتسم هذه في خبث وتقول في ابتسام : اوه يابنيتي ! انه الرجل ! غداً ستتزوجين من شاب غني في المدينة فتركد هذه الآلام ! وتسمع جميلة هذه الكلمات الضخمة المرعبة فيصطبغ وجهها بحمرة قانية ويدق قلبها بسرعة ، لكنها تتبين من بين هذه الكلمات السر الذي طالما أقضها اجل الرجل ! انه الشاب الاسمر ذو الصوت الرخيم ! ومن ذلك اليوم ونومها مضطرب مليء بالاحلام والفتى الاسمر ينبري في كل حلم .

وفي ليلة من الليالي ، وجميلة في حجرتها وصلت الى سمعها اصوات مختلطة أشبه بالشجار اصاخت السمع فاذا بالاصوات تصدر من حجرة والدها ولم تشعر الا وقوة خفية تدفعها الى هناك واذا بها تسترق السمع والنظر من خصاص الباب يا لله ! انه المغني الاسمر ! وحيل اليها ان يداً تقبض على قلبها فتعصره ، وتماسكت اذ وصلت الى سمعها هذه العبارة وكان الفتى الاسمر هو المتكلم « كلا يا عماه . . لسنا اجلافاً كما تعتقد . . اننا اكرم وانبل من اهل المدن الذين تشيد بهم . . فلا تأنف منا . . اني لم ارتكب جرماً حين طلبت منك يد ابنتك على سنة الله ونبيه . . فاذا كنت تعتقداني جرحت كبرياءك فاني اعتذر » وينهض الشاب فترتد مذعورة حين يصل الى سمعها صوت والدها وهو يقول مغضباً « اغرب ايها الشيطان فان مكان ابنتي في المدينة » ولاول مره يشعرت جميلة انها تبغض والدها !.

وتقع الفتاة فريسة لهزال مستمر ، وتلح عليها الحمى كل ليلة ويرقبها والدها مشفقاً ، فيقرر اصطحابها الى المدينة حيث اقاربه وحيث يستطيع ان يعرضها على الاطباء فتنقاد له مكرهة . وهناك يتركها في بيت هؤلاء الاقارب ويعود هو الى القرية وما تكاد تمضي بضعة ايام حتى تشفى جميلة وتستشعر المرح من جديد ويبدو لها ان الحياة حلوة هاهنا في المدينة ، بين هؤلاء المترفين الذين ينعمون بحظ موفور من الراحة والسعادة . لقد تعودت ان تجلس كلما يرتفع الضحى الى نافذة حجرة تطل على الشارع ترقب الغادين والرائحين متسلية باشياء جديدة كثيرة . . سيارات وعربات تغدو وتروح . . شباب متأنقون ناعمون . . باعة

كثر يبيعون كل ما يملك لنفس او عين .. وفجأة تبصر ذات يوم بشاب في النافذة المقابلة . . انه شيء جديد أيضاً اشقر مشرق القسمات باسم الثغر طويل القامة ينظر اليها بجرأة عجيبة فتفر جميلة كأنها ظبية مذعورة وصدرها يعلو ويهبط . . ويتكرر المشهد كل يوم ويطول في نفس الوقت .. ويزول الجمود والذعر تدريجاً . . وتجرأ جميلة على اطالة النظر . . ويبتسم الشاب ابتسامة مشرقة فلا تملك الا الا بتسام ، وتنفلت الى الداخل مبهورة الانفاس . . لكنها تشعر اذ تأوي الى فراشها بلذة خفية وحنين طاغي الى النهار . . الى الشاب الاشقر . .

وهكذا تمضي ايامها وليالها في المدينة حلوة لذيذة فيها كثير من المتعة ، ولم تتذكر القرية وآلامها كأنما هي مشدودة الى المدينة بروابط أعمتها عن كل شيء .. ولم تعد تكفي النظرات والابتسامات . . بل تدخل الشيطان الى ابعد الحدود ، فالتقى الإثنان : شاب اعزب من المدينة ، وفتاة ناضجة ساذجة من الريف !

وجاء الاب العجوز يسعى ذات يوم ليحمل ابنته الى القرية ولم يدر انه كان يصطحب انساناً آخر معها !

وفي الريف تعيش جميلة في مأساة مرعبة رهينة اربعة جدران ، تحمل في احشائها جنيناً هو ثمرة الجريمة . . أهي جريمتها ؟ وتتضخم البطن بالتدريج وتخاف الضحية المذعورة نتائج الفضيحة وسكين الجزار فضلا عن عقاب الضمير . . فتغادر القرية في غبش الفجر تجر قدميها المتعبتين صوب المدينة . . عينان مقرحتان . . وبطن منتفخة . . ووجه شاحب وضمير ينزف دماً !

أيتها المدينة ! استقبلي هذه الضحية الجديدة . . اطوعليها جناحيك القاسيين ومخلبيك الجارحين ، وغيبيها في عالمك المجهول الغامض مع مئات من الضحايا الاخر ضحايا المجتمع !

البصرة — فيصل جري السامر

المحامي

احمد رشيد البهاش

يتوكل في كافة الدعاوي داخل النجف وخارجها

مداعبات

● — يزعم بعض الافاضل من ثمالة ابناء القرن التاسع عشر : ان البركة مقسمة الى عشرة اجزاء تسعة تستوطن النجف دائماً وواحدة تمر على سائر بلاد الله وتبات في النجف . ومما يدل على صحة هذا الزعم ان البطالة في النجف بالمائة خمس وتسعين بفضل هذه البركة .

● — سئل أديب نجفي عن الأدب القصصي في النجف أجاب لا يوجد في هذه المدينة أعلام القصة رغم انها تزخر بأدب فضفاض !! قيل له ولماذا : أجاب لأن القصاص يحتاج الى خيال ينتزع من المحيط والنجف مدينة جرداء .

● — قال لي أديب يفهم معنى الحياة : ما هي الاسباب التي حدت بك الى العنايه بالقصة : أجبته لاصور ما اصاب المجتمع من تفسخ وانحلال بانتشار الظلم والرشوة والامية ومقاطعة الشباب للزواج ، وسفه الآباء والامهات ، واحتقار القوي للضعيف .

● — قال لي شيخ فاضل هزم : ماذا صنعت لامتك وانت صحفي . قلت : وماذا عملت انت لها . أجابني : كنت اكثر من الوعظ والارشاد . قلت بأي إسلوب . قال بما يفزز من عقلية الشباب ويقربهم الى الدين . قلت : مثال ذلك قال اذا شاهدت شاباً يحلق لحيته . أقول له يازنديق لا تصنع ذلك . قلت هذا هو سر فشلك لانك بعد لم تفهم مصداق الزندقة . .

● — قلت لرجل يحاول التزعم : ماذا تعمل اذا صرت زعيماً . قال أقضي على كل بشر لا يعترف بزعامتي . قلت وبعد ذلك . قال استغل الضعفاء ومعاملاتهم عند الحكومة فاقضيها بثمن يدعى [خشمك إذنك] .

★ ● ★